Her&

هكذا
علَّم الأنبياء

تأليف

سلمان بن فهد العودة

المشرف العام على شبكة الإسلام اليوم

هذه الرسالة

"**هكذا علم الأنبياء**": هو عنوان الدرس الذي يحمل رقم (٥٣) من سلسلة " **الدروس العلمية العامة**" التي كنت ولا زلت -بحمد الله- ألقيها في (الجامع الكبير) ببريدة.

وقد ألقي هذا الدرس بتاريخ ١٣/ شعبان/ ١٤١٢هـ.

وبناء على رغبات متعددة قام بعض الإخوة المحتسبين بنسخه وتفريغه وتصحيحه، وتوليت مراجعته، كما قام آخرون بتخريج آياته وأحاديثه.

وأنا أدعو الله لنفسي ولهؤلاء ولأولئك أن يشملنا بعفوه، وأن يجعل العمل خالصًا لوجهه لا رياء فيه ولا سمعة.

وأسأل كل أخ مسلم وجد في هذا الكتاب، أو في غيره نقصًا أو خطأً ألا يبخل عليَّ بالنصيحة: [1]

وله مني دعوة منجزة أن يجزيه الله تعالى عني خير الجزاء؛ فإن المؤمنين نصحة، والمنافقين غششة.

(1) ويمكن أن يبعث أي ناصح بأي ملاحظة على هذه الرسالة أو غيرها على بريدي في هذا الموقع.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

القصيم- بريدة

ليلة الأربعاء ٢٥/ ١١/ ١٤١٢هـ

* * *

مقدمــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى إخوانه من أنبياء الله تعالى ورسله، الذين حملوا رسالة التوحيد، وأدوها وبلغوها، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين من ربهم، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء وأعظمه، وأكمله وأوفاه.

أما بعد:

فإننا نعيش فترة من فترات تجديد الدين، فترة نأمل أن تثمر تمكينًا للإسلام وأهله في الأرض، وهلاكًا لأعداء الدين في كل مكان، كما قال موسى عليه السلام: لما اشتكى إليه أتباعه: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف:١٢٩]

ولا ريب أن الطريق السليم، والسبيل الأمثل الذي يجب أن يسير عليه الساعون للإصلاح في هذا الزمان –وفي كل

زمان– هو طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فما أحوج المجددين اليوم إلى أن يراجعوا سيرة المصلحين الأوائل (**أنبياء الله ورسله**)؛ ليروا إلى ماذا دعوا؟ وما حقيقة دعوتهم؟ وكيف دعوا؟ وماذا لقوا؟ ولكي يسيروا في الطريق الصحيح على بصيرة، وبخطى ثابتة، لا يثنيهم عن مرادهم طول الطريق، ولا هدير الأمواج، أو صفير العواصف.

من هنا تبرز أهمية طرح موضوع **دعوة الأنبياء والمرسلين** عليهم الصلاة والسلام، عسى أن يكون في ذلك توضيح لأبرز المعالم فيها.

* * *

الأنبياء

ذلك الاسم الكبير اللامع العظيم الجليل - كانوا على مدار التاريخ يُبعثون إلى الناس، فيجاهدون ويصبرون ويصابرون، وكانوا منارات يهتدي بها الناس في الظلمات، ورحمة من الله تنــزل على البشر؛ لتخرجهم -بإذن ربهم- من دياجير العمى والضلالة إلى نور الهدى والبصيرة.

ولطالما تحمَّل أولئك الأنبياء ما تحملوا، ولقوا ما لقوا، وصبروا على الأذى من أقوامهم، وهم لا يرجون من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا؛ وإنما كل همهم أن يُعبِّدوا الناس لربهم ﷻ.

يصطفيهم ربهم وهو أعلم بهم، ويختارهم من بين ملايين البشر؛ لينالوا شرف الرسالة، وليحملوا أعباء البلاغ (وربك يخلق مايشاء ويختار)، (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس)، فيبعث كل واحد منهم في قومه على حين فترة من الرسل، فيناديهم ليلاً ونهارًا، ويخاطبهم سرًا وجهارًا، ويتحمل في سبيل دعوته إلى ربه ما يواجهه به قومه من صدود، وتكذيب، وأذية؛ فتعاقبت في أحقاب تاريخ البشرية كوكبة نيرة من أنبياء الله ورسله من لدن آدم - عليه السلام — فمن ولي من رسل الله وأنبيائه الكرام " إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وءاتينا داود زبورا ". [النساء : ١٦٣]، " ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ".[غافر : ٧٨] رفعوا كلهم راية الإصلاح في مجتمعات سيطر عليها الفساد بكل صوره وألوانه، و لم يكتفوا .بمجرد صلاح أنفسهم، فصدعوا بدعوة الحق مجلجلة في أممهم المنحرفة عن التوحيد والهدى.

كلهم كانوا كذلك؛ ولهذا كان الراجح من أقوال أهل العلم في التفريق بين النبي والرسول هو: أن النبي من جاء

مجدِّدًا لدعوة من قبله، و لم يأتِ بشريعة جديدة[1]، علمًا بأنهم جميعًا بُعثوا إلى أقوامهم دعاة إلى دين الله، مجاهدين في سبيله، هداة إلى صراطه فبلّغوا ما أنزل إليهم من ربهم وصبروا على

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في كتاب: النبوات، بتحقيق: د. عبد العزيز الطويان ص ٧١٧ (فالأنبياء ينبئهم الله، فيخبرهم بأمره، ونهيه، وخبره. وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبائهم الله به من الخبر، والأمر، والنهي. فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسلَ قوم؛ قال تعالى: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) [الذاريات: ٥٢]. وقال (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك).[فصلت : ٤٣]؛ فإن الرسل ترسل إلى مخالفين؛ فيكذبهم بعضهم .

وقال: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الأخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون * حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) [يوسف : ١٠٩-١١٠].

وقال: (إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [غافر : ٥١].

فقوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) [الحج : ٥٢]: دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق؛ كالعالم، ولهذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (العلماء ورثة الأنبياء).

وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإن يوسف كان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التورات.

ما كُذِّبوا وأوذوا؛ ولذلك كتب الله لهم الذكر الحسن في هذه الدنيا، فما من مسلم إلا يهش لذكرهم ويحبهم، ويثني عليهم ويصلي ويسلم عليهم كلما ذكروا.

هذا وما أعد الله لهم في الجنة من المنازل الدرجات العلى فوق ما يخطر على قلب بشر، فصلوات الله الطيبات وسلامه وبركاته عليهم أجمعين .

* * *

ماذا ينتظر المصلحين؟

إن حمل راية الإصلاح في مجتمع ضال منحرف معناها: أن المُصلح سينكر ويقاوم أشياء تعارف الناس عليها، وصارت مألوفة لديهم، وجزءًا من حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد تكون هذه الأشياء شديدة التأصل في قلوبهم. وأي شيء أعمق في قلوب الناس من العقائد، إذا كانوا قد تربوا منذ طفولتهم على عقيدة ما، كعبادة صنم من الأصنام المتنوعة، شجرة كانت أو حجرًا أو طوطمًا، أو شخصًا طاغيًا، أو غير ذلك؟! يأتي النبي لينكر عليهم عبادة هذا الصنم الذي أصبحت عبادته عقيدة متأصلة في قلوبهم، ويقول لهم كما جاء في كتاب الله ﷻ: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ [الأنبياء:٦٦،٦٧] فما الظن أن يلاقي النبي من قومه بسبب هذا الإنكار، وهذه المواجهة القوية الصريحة الواثقة، التي تميز الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المصلحين المؤثرين عن غيرهم، ممن قد يكونون صالحين في أنفسهم لكنهم سلبيون غير مصلحين، لم يقاوموا الفساد، ولم يحاربوه؛ بل رضوا بالطريق السهل الهين، الخالي من الأشواك والمكاره، طريق السلامة والسكوت؟!.

انظر -مثلاً- إلى الحنفاء الذين كانوا في الجاهلية، أولئك الموحدين الذين لا يعبدون إلا الله، ولا يرتكبون المخالفات الشرعية، لكنهم لا يتعرضون للناس في شيء، ولا يحاولون إصلاح مجتمعهم الذي يعجُّ بالشرك والفساد والضلال؛ فلم ينالهم من الناس شيء من الأذى أو المحاربة.

فهذا **زيد بن عمرو بن نفيل**، الذي كان من الحنفاء في مكة، وقد رآه النبي ﷺ كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أن زيد بن عمرو بن نفيل لقي النبي ﷺ بأسفل (بلدح)(*)، وكان مع النبي ﷺ زيد بن حارثة، وقد قُدِّمت للنبي ﷺ سفرة من طعام، فأمره أن يدنو فيأكل منها، فقال زيد بن عمرو بن نفيل: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذُكر اسم الله تعالى عليه. وأن زيد بن عمرو بن نفيل كان ينكر على قريش ذبائحهم ويقول: يا معشر قريش، الشاة خلقها الله تعالى، وأنزل لها من السماء الماء،

(*) بلدح: جبل وواد قريب من مكة على طريق التنعيم يسمى اليوم: أم الدود. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (٤٨) وانظر معجم ما استعجم (١/ ٢٧٣)، ومعجم البلدان (١/ ١٣٣).

وأنبت لها من الأرض، ثم أنتم تذبحونها على اسم غير الله"؟![1].

بل كان يصرح لقريش بإنكار عباداتهم، فيقول:

هجرتُ اللات والعزَّى جميعًا
كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورُ
فلا عُزّى أطيع ولا ابنتيهـــا
ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولا هُبَلاً أطيع وكان ربـــًّا
لنا في الدهر إذ حلمي صغيرُ
ولكن أعْبـــدُ الرحمـــن ربي
ليغفر ذنبي الـــربُّ الغفـــورُ

وكان يقـــف قـــبالة الكعبة ويقـــول:

عذت بما عاذ به إبراهـــمُ
مستقبلَ الكعبة وهو قـــائمُ

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يقول: أنفي لك عانٍ راغمُ
مهمـــا تُجَشِّمْني فإني جاشمُ

وكان يقول: "يا معشر قريش، إياكم والربا؛ فإنه يورث الفقر".

وكان يأتي إلى الرجل وعنده الجـــارية يريد أن يئدها، فيقول: "لا تقتلها، أيّ ذنب فعلت حتى تقتلها؟! إن كان يشق عليك أن تطعمها وتكسوها فهاتها أنا أطعمها وأكسوها"، فيأخذها منه ويطعمها ويكسوها، فإذا كبرت قال لأبيها: "إن شئت أخذتها، وإن شئت أبقيتَها عندي".

ولذلك تمدَّح الشاعر بأنه ينتسب إلى مثل هذا الرجل، فقال:

ومنا الذي منع الوائدات
وأحيا الوليـــدَ فلم يوأدِ

لكن زيد بن عمرو بن نفيل، ومجموعة من الحنفاء في مكة -وإن بَدَر من بعضهم شيء من الإنكار والتوجيهات في مجتمعهم- لم يكن لهم أي تأثير، أو مشاركة إيجابية متعدية؛

لأنهم كانوا أشبه باليائسين من الإصلاح، في عالم يموج بألوان الشرك، والوثنية والانحراف في النظم والأخلاق؛ فرأوا أنهم لا طاقة لهم بمواجهة ذلك كله، ورضوا بالاقتصار على صلاح أنفسهم، وكل ما كان يصدر منهم من المجهودات الإصلاحية يبقى جزءًا محدودًا ليس له بُعْد إصلاحي، فضــلاً عن أن يصل إلى درجة الطموح إلى الإصلاح الكامل في كل شئون الحياة.

فبعث الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل، وانطماس من السبل، فهدى به من الضلالة، وبصَّر به من العمى، وأيَّده بصحابته الكرام ﷺ الذين جاهدوا معه، وبذلوا كل ما يملكون في سبيل الله.

وإنك لتجد الفرق كبيرًا مذهلاً، والبون شاسعًا، بين موقف المشركين من الحنفاء، وموقفهم من النبي ﷺ بعد مبعثه. فلم يُنقل -مثلاً- أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يلقى من قريش شيئًا من الأذى والمحاربة، اللهم إلا أنهم قد يفرّون منه، وقد يردّون دعوته ولا يقبلونها، ونحو ذلك، ووقف الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه إلى أبعد منه؛ بل ربما كان الحنفاء

يحظون في بعض الأحيان بقدر من الاحترام والتقدير من قبل قريش.

أما الرسول ﷺ لما بُعث، فعلى الرغم من أنه في أول الدعوة ما كان يدعوهم إلا إلى التوحيد ونبذ الشرك والوثنية؛ على الرغم من ذلك ما تركوا أسلوبًا من أساليب الحرب والصد إلا سلكوه ضد رسول الله ﷺ؛ لأنه أعلنها دعوة صريحة للإصلاح الجذرى، في مجتمع تغلغلت فيه الوثنية، ورَضَعها مع لبانه، ووَرِثَها كابرًا عن كابر.

❋ ❋ ❋

بل تخلت قريش -في سبيل حرب النبي ﷺ- عن قيم ومبادئ كانت تفتخر بها العرب وتحرص عليها: مثل خلق إكرام الضيف، والجود على الناس... فلما بُعث رسول الله ﷺ وآمن به مَن آمن؛ حاصرتهم قريش في شعب أبي طالب، ومنعت عنهم الطعام والشراب، حتى كان الواحد من المسلمين يذهب ليقضى حاجته فيجد تحته شيئًا، فينظر فإذا هو قطعة من القِدّ[1]، فيأخذه، ويطحنه، ويَسْتَفُّه، ويشرب عليه الماء، فيتقوى به أيامًا.

وكان المشركون يسمعون تضاغي[2] الأطفال في الشعب، فلا يرِقّون لهم، ولا يرفقون بحالهم؛ بل نسوا الكرم والجود، وتحولوا إلى وحوش شرسة؛ لما رأوا الدعوة صريحة، والأمر جدًا، في حين كان منهم أجواد كرماء معروفون، مثل: عبد الله بن جدعان الذى كان مشهورًا بقرى الضيفان في مكة، حتى إنه كان يبعث المنادين في نواحى مكة يدعون إلى

(١) القِدّ: سير يُقد -أي يُقطع- من جلد غير مدبوغ. انظر: مختار الصحاح ص (٢١٩).

(2) التضاغي: الصياح والاستغاثة من الألم. المعجم الوسيط (٥٦١/١).

الطعام، أن من أراد الطعام فليأت إلى دار عبد الله بن جدعان؛ ولهذا مدحه أمية بن أبى الصلت، فقال[1]:

له داعٍ بمكــةَ مُشْمَعِــلٌّ[2]
وآخرُ فــوق دارته ينادي

إلى رِدحٍ من الشِّيزي[3] ملاءٍ
لبابَ البر يُلْبَك[4] بالشِّهاد[5]

بل أشد وأنكى من حصار قريش للمسلمين في الشعب، أنهم طاردوا المسلمين الفارين بدينهم إلى الحبشة، فبعثوا إلى هناك من يوغر صدر ملك الحبشة على المسلمين؛ ليخرجهم من أرضه، فبعثوا عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص وغيرهما؛ ليقولوا لملك الحبشة: "أيها الملك، إنه قد ضوى[6]

(1) انظر البيان والتبيين (٢٥/١)، والأغاني (٣٨٢/٨).

(2) اشمعلَّ الرجل: ارتفع وأشرف. المعجم الوسيط (٥١٤/١).

(3) الشيزي: شجر تُعمل منه القصاع والجفان. لسان العرب (٣٦٣/٥)، وهنا المقصود: الجفان التي يوضع فيها الطعام.

(4) يلبك: يخلط. المعجم الوسيط (٨٤٦/٢).

(5) الشِّهاد: جمع شُهْدَة، وهو عسل النحل ما دام لم يعصر من شمعه. المعجم الوسيط (٥١٧/١).

(6) ضَوَى: مال وانضم. المعجم الوسيط (٥٦٧/١).

إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه"(١)

بهذه الضراوة تحارب قريش المؤمنين، وتلاحقهم خارج بلادها، متخلية عن مبادئ الجود والإجارة والكرم، التي ملأت معلّقات العرب وأشعارهم تفاخرًا وتمدحًا؛ كل ذلك لما انكشف الصراع بين التوحيد والشرك، وصارت المعركة واضحة لا غموض فيها.

وواجه النبي ﷺ من المشركين حملات إعلامية شرسة -كما واجه أنبياء الله من قبله-، وهي حملات تسعى إلى تشكيك الناس في نيات أنبياء الله، ومقاصدهم من دعوتهم، وتشكيكهم في مناهج أولئك الأنبياء، وفي وسائلهم، وفي مستقبلهم.

* * *

(1) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤١٣).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ !

فقد اتهمت قريش محمدًا ﷺ في مقصده من دعوته، ورَمَتْهُ بأن له مآرب ومطامع شخصية من ورائها: ﴿ **وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ** ﴾ [ص:٦]، أي أن ملأ قريش وكبراءهم أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على دينهم الوثني؛ لأن محمدًا -كما يزعمون- يريد أن يكون رئيسًا وملكًا وسيدًا عليهم: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ** ﴾، وليس قصده الدعوة إلى الله.

وعلى هذه الشاكلة يدعون ويفترون على رسول الله ﷺ الأكاذيب، ويغالطون أنفسهم؛ ليغرروا بالعامة والسذج، مع يقينهم أن رسول الله ﷺ هو أزهد الناس في المطامع الدنيوية التي رموه بالتطلع إليها؛ لأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا له: إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا سوَّدناك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملَّكناك علينا... (١) فلما انتهوا من عروضهم الأرضية، قرأ عليهم نبي الله ﷺ شيئًا من

(1) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٢).

القرآن، فلما رأوا صبره وإصراره على دعوته افتاتوا عليه، واختلقوا له التهم كيلاً، مع أنهم أول من يعلم براءته منها.

ومن قبل قال فرعون وأتباعه عن موسى: ﴿ **أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:٧٨]، سبحان الله!! فرعون الذى بلغ الغاية في الطغيان والتكبر والتسلط، الذى يقول: ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى** ﴾ [القصص:٣٨]، وكان يقول: ﴿ **أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات:٢٤]، فرعون الذى يبتز أموال الناس وخيراتهم، ويأخذ من يريد من بناتهم لمتاعه الحيواني، فرعون الذى يقتل أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم، ويستعبد شعبه ويستخدمهم!! فرعون الذي يمارس فنونًا شتى من فرض الذل على الناس مما ذكر وغيره؛ نجده لما جاء موسى وهارون؛ ليدعوا الناس إلى الخروج من طغيان فرعون واستعباده، إلى طاعة الله وتوحيده، نجده يقول: ﴿ **أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:٧٨].

ولئن كان من العجيب موقف ذلك الطاغوت من دعوة موسى لما أحس بالخطر؛ فإن الأعجب منه أمر تلك الجماهير المضلَّلة التى تصدقه وتطيعه وتتابعه فيما يقول ويأمر، أمر جنوده الذين قاوموا موسى عليه السلام وحاربوه، ولاحقوه حتى بلغ إلى البحر! أين عقول أولئك الجنود؟! أين إنسانيتهم؟! لقد استخفهم فرعون كما قال تعالى: ﴿ **فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وعلى هذه الشاكلة نجد أعداء الرسل عبر التاريخ يشككون الناس في نيات الرسل ومآربهم من وراء دعوتهم؛ لتنجفل الجماهير عنهم، وتبقى السيادة والعلو في الأرض للملأ الضالين: ﴿ **مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [فصلت:٤٣]، ﴿ **أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات:٥٣].

* * *

﴿ إنَّا لنراك فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

وأما تشكيكهم الناس في مناهج الرسل فمن مثل قولهم: ﴿ إِنَّا لنراك فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف:٦٠]، ﴿ إِنَّا لنراك فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف:٦٦]، ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين:٣٢]، ﴿ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ [الذاريات:٥٢]، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة، حتى إن قوم شعيب قالوا له: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لأنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧]. بهذه السخرية والاحتقار يردون على شعيب بأنه -كما يزعمون- يتكلم من سفاهة وضلالة في عقله حينما دعاهم إلى طاعة الله.

وهكذا كان خصوم أنبياء الله دائمًا يعلنون للناس أن هؤلاء الأنبياء ينطلقون في دعوتهم من خلل في العقول، وبدائية في التفكير، وأنهم لا يستطيعون الإصلاح، ولا يملكون منهجه السليم، ولا قدرة لهم على معاناة الواقع والتعامل مع مشكلاته المعقدة، ولا يصمدون أمام التحديات الكبيرة!

﴿ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾!

وأما تشكيكهم في وسائل الرسل التي كانوا يدعون بها الناس إلى الله، فأمثلته كذلك كثيرة.

فقد قالوا لنوح عليه السلام -مثلاً-: ﴿ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ [هود:٣٢]. هكذا يظهرون التبرم والضيق بدعوة نبي الله نوح، ويعدّون دوام مناصحته لهم جدالاً وإكثارًا من الكلام، وهذا ينم عن انقطاعهم من الحجة، ويوحي بأنهم ماعادوا يملكون أسلوبًا للرد، فمضوا يقولون له: إنك أكثرت الكلام، فإن كان عندك شيء مما تعدنا به من العذاب فأت به.

وقال قوم شعيب له: ﴿ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود:٩١]، يتهمونه بضعف البيان وعدم وضوح القول، وعجز الآلة الإعلامية لديه عن الإفصاح والإبلاغ؛ لأنهم لايريدون أن يستجيبوا، فقلوبهم يعلوها الران والصدأ، مع أنهم في الحقيقة يفقهون ما يقول ويدركونه.

ومن المعلوم أن رسل الله تعالى كلهم فصحاء أصحاب

بيان، يختارهم الله من علية أقوامهم، ويمنحهم قوة في الحجة، وقوة في الفصاحة والبلاغة والبيان. قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ** ﴾ [إبراهيم:٤]؛ لتقوم الحجة على المرسل إليهم.

ولهذا لما بعث الله تعالى موسى الطَّيْكِلاً، قال موسى داعيًا ربه: ﴿ **وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا** ﴾ [طه: ٢٧-٣٥]، فقال له الله ﷻ: ﴿ **قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ** ﴾ [طه: ٣٦]، فحل الله سبحانه عقدة لسانه؛ فكان بيِّنًا فصيحًا بليغًا، وآزره بأخيه هارون الطَّيْكِلاً، ومع هذا نجد فرعون يقول عن موسى: ﴿ **أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ [الزخرف:٥٢]، فيعيره بحبسة كانت في لسانه قبل النبوة، ولما أعيته الحجة لجأ إلى التهمة الباطلة، وهوَّن من وسيلة موسى في البيان والبلاغ؛ ليشكك الناس في قدرته، وينفرهم منه.

وهذا هو ديدن أعداء الأنبياء في أول الزمان وآخره، ففي العصر الحاضر نجد أنهم يقعون في تناقضات كثيرة، يسخر منها الإنسان العادى، حينما يكتبون أو يحللون أو يتكلمون أو يذيعون، مع أنهم ربما كانوا أذكياء عقلاء، ولكنهم يقعون في التناقض؛ لأنهم يحملون لواء الباطل، والسموات والأرض إنما قامت بالحق، فما من إنسان يدافع عن الباطل إلا فضحه الله ﷻ، وما من مدافع عن الحق إلا جعل الله تعالى السداد والصواب على لسانه.

ولما بُعث محمد ﷺ في جزيرة العرب كان في ذروة الفصاحة والبلاغة، في قوم يفاخرون باللسن ويتيهون به على الأمم، حتى ليُسَمُّون غيرهم أعاجم. فلما جاءهم رسول الله ﷺ بدعوته لم يستطيعوا أن يقولوا كما قال قوم شعيب له: ﴿ **مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ** ﴾ [هود:٩١]؛ لأنهم يعلمون مكانه من البيان، ولا يستطيعون أن يحولوا بينه وبين الناس؛ ولهذا قالوا: إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه، والأخ وأخيه؛ وذلك ليصدوا الناس عن سماع دعوته أصلاً، حتى إنهم جاءوا إلى الطفيل بن عمرو الدوسي -مع أنه رجل عاقل- ومازالوا به

حتى وضع القطن في أذنيه؛ لئلا يسمع كلام النبي ﷺ[1]؛ لأنهم يدركون أنه الحق، وأن للحق سلطانًا على القلوب، يأسرها ويجذبها إليه، فيجعلون من "التعتيم الإعلامي" -بلغة العصر الحاضر- وسيلة لمحاصرة الدعوة، وفرض القيود عليها.

* * *

(1) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٥-٢٩).

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾

وأما تشكيكهم في مستقبل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فذلك مثل قول فرعون عن موسى عليه السلام ومن معه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦]. هكذا يصور فرعون للمخدوعين المستعبدين أن موسى ومن معه مجرد شرذمة قليلة من المشاغبين، وأنهم قد أغاظونا وأسخطونا، ونحن لسنا غافلين عنهم ولا عاجزين؛ بل نحن جميعاً حاذرون منتبهون متابعون، مهددًا بهذه العبارة موسى وأتباعه، مشيرًا إلى أنه سوف يضع حدًا لهذا الشغب، ظانًا أن قواته العسكرية والأمنية، وأن إمكاناته السياسية والاقتصادية ستغني عنه شيئًا -تمامًا كما تظن أجهزة الأمن العالمية التي سخرت جهودها لحرب الإسلام- وما علم فرعون أن المصير الذي ينتظره هو أن يصبح جثة هامدة في اليم، ثم يلقيه اليم بالساحل: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:٩٢]. وهكذا مصير الطغاة المستكبرين، وما علم أن الله تعالى قد كتب النصر لموسى وأتباعه من المؤمنين، والظهور في الأرض، والاستخلاف عليها.

ومن تشكيك الطاغين في مستقبل الرسل ما قاله آزر لابنه إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]. هكذا يهدد آزر ابنه -إن لم يتوقف عن الدعوة إلى التوحيد وعيب الآلهة- بالرجم، ويطلب منه أن يهجره دهرًا طويلاً. وضاعت عواطف الأبوة والقربى لما كانت المعركة بين التوحيد والشرك، مع أن إبراهيم عليه السلام كان يخطب أباه بألطف وأرق العبارات: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٢-٤٥]، فإبراهيم مشفق على والده، حريص على هدايته وحمايته من عذاب الله تعالى، ومع ذلك يواجهه بقوله: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]، والملأ من خلف آزر ومن أمامه يتواصون بإبراهيم: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ولم يعلموا أن الله عز وجل تكفّل بحفظ إبراهيم وبمستقبله ومستقبل دعوته: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا

فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٠]. ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل:٥١].

ونجا إبراهيم عليه السلام من كيدهم، وصار إمامًا للمؤمنين إلى قيام الساعة، وقدوة حسنة لهم، حتى إن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء كان هو دعوة إبراهيم عليه السلام، كما قال ﷺ: **"أنا دعوة أبي إبراهيم"**(1). وجعل الله لإبراهيم عليه السلام لسان صدق في الآخرين،

(1) أخرجه أحمد (١٦٧٠٠) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وفي إسناده عبد الأعلى بن هلال السلمي وهو مجهول، والراوي عنه سعيد بن سويد الكلبي، قال البخاري: لم يصح حديثه. وأخرجه ابن حبان (٦٤٠٤)، والحاكم (٣٥٦٦)، والطبراني في الكبير (٦٢٩) من طريق معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وأخرجه الإمام أحمد (٢١٧٥٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي إسناده فرج بن فضالة وفيه مقالٌ، قال فيه البخاري: منكر الحديث، وهو يروي عن لقمان بن عامر. وقد ذكر الحديث ابن عدي في الكامل (٢٩/٦) في ترجمة فرج بن فضالة، وذكر معه أحاديث أخرى وقال: هذه الأحاديث التي أمليتها له عن لقمان عن أبي أمامة غير محفوظة. اهـ وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩٣/٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وقد روى نحوه الحاكم في المستدرك (٤١٧٤) عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ بنحوه، وقال عقبه: صحيح الإسناد. وقد صححه الشيخ الألباني كما في صحيح الجامع (١٤٦٣).

حتى إن المسلمين لايزالون إلى قيام الساعة يقولون في صلاتهم: **"اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد"**(١)، ولايزال المسلم يصلي خلف مقام إبراهيم ركعتين إذا حج أو اعتمر كما أمر الله تعالى: ﴿ **وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى** ﴾ [البقرة:١٢٥]، وكما كان النبي ﷺ يفعل(٢).

وهكذا جعل الله لإبراهيم عليه السلام الذكر الحسن في هذه الدنيا، وأما في الآخرة فالعاقبة للمتقين، وقد ذكر النبي ﷺ في حديث سمرة الطويل رؤيته لإبراهيم عليه السلام في الجنة وحوله أطفال المؤمنين(٣).

* * *

---

(1) أخرجه البخاري (٣٣٧٠) وهذا لفظه، ومسلم (٤٠٥ ، ٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(2) انظر: البخاري (٣٩٥)، ومسلم (١٢٣٤).

(3) أخرجه البخاري (١٣٨٦)، وأصله في مسلم (٢٢٧٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

﴿ **لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ﴾

ولئن شنّ فرعون على موسى، وآزر على إبراهيم حملات إعلامية تهدد مستقبلهم ومستقبل دعوتهم؛ فقد لقي النبي محمد ﷺ من مشركي العرب لما جهر بدعوته من الحملات والمؤامرات ما كشف الله تعالى ستره: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ** ﴾ [الأنفال:٣٠].

أما الإثبات فهو ما قد يسمى – بلغة العصر الحاضر – **"فرض الإقامة الجبرية"**، ومنع النبي ﷺ من السفر من مكة والهجرة إلى أي مكان لنشر دعوته، ويدخل في معنى الإثبات: السجن وإيثاق النبي ﷺ بالقيود والأغلال، بحيث لا يستطيع – كما أرادوا– أن يتحرك.

وأما القتل والتصفية الجسدية فأمرها واضح.

وأما الإخراج فهو النفي، نفي النبي ﷺ من البلاد وطرده منها ﴿ **لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ﴾ [الأنفال:٣٠]. هذا هو تفسير الآية كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه فيما رواه عنه عبد الرزاق،

وأحمـــد، وعبد بن حمـــيد، وابن المنذر، والطبراني، والخطيب البغدادي، وغيرهم[1].. وبطل كيد الكائدين، وصارت العقبى للرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين إلى يوم الدين.

ولم تكن قريش تظن وهي تحارب الرسول ﷺ أنها تناوئ رجلاً كتب الله تعالى أن يكون أتباعه في كل عصر يعدون بالملايين، أو أنها تقاوم شخصًا كتب الله أن تصدح المآذن باسمه الكريم في كل يوم خمس مرات، في مشارق الأرض ومغاربها.

وضـــمَّ الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمـــه
إذا قال في الخمسِ المؤذنُ: أشهـــدُ
وشـــق له من اسمـــه كي يجلَّـــه
فذو العـــرش محمودٌ وهـــذا محمدُ

لم يكن يخطر ببال المشركين المحاربين للمصطفى ﷺ أن أتباعه سوف يكونون قوة تحسب لها كل قوى الأرض ألف حساب، بعد مضي مئات السنين على وفاته ﷺ.

(1) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/٣٢٦،٣٢٧).

ليت شعري هل درى من طاردوا
عابـــدو اللات وأتبـــاعُ مَنـــــاه؟
هـــل درت من طـــاردَتْه أمـــةٌ
هُبـــل معبـــودها شاهت وشاه؟
طـــاردت في الغـــار من شادَ لها
دينـــهُ في الأرض جاهًا أي جاه
طـــاردت في الأرض من بوأهـــا
مقعـــدًا لا يبلغ النجـــم مـــداه

ومثل هذا الموقف يكشف لنا عن خبث أقوام يحاربون الرسول ﷺ ودعوته بأسلوب المناورة والنفاق، فيمدحون الرسول ﷺ بألسنتهم؛ بل ويقيمون الاحتفالات في مناسبات الأحداث التاريخية في حياته ﷺ: كمناسبة المولد، ومناسبة الهجرة، ومناسبة الإسراء والمعراج... إلى غير ذلك من المناسبات البدعية، ويتغنون في هذه الاحتفالات بمدح الرسول ﷺ، ويرددون القصائد والأناشيد، ثم ينبرون بعد ذلك لحرب شريعته ودينه أن يكون لها وجود حقيقي في الحياة، ويقاومون من يدعو إلى ذلك من خلال خطط رهيبة خبيثة، تشي بخبيئة

نفوسهم المريضة، التي يغلِّفونها بالاحتفاء الظاهري الميت بالنبي ﷺ.

* * *

القضية الكبرى: التوحيد

إن قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، هي القضية الكبرى الأساس التي دعا إليها جميع الأنبياء، ودارت حولها جهودهم، ومن أجلها حاربوا وسالموا وأوذوا، واستغرقت منهم ساعاتهم ولياليهم وأيامهم، وكانت همهم وديدنهم ولهجهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا.

وهي قضية سهلة واضحة، بعيدة عن التعقيد والإشكال، يفهمها كل أحد، سواء كان عالمًا أو متعلِّمًا أو أميًّا، يفهمها الأعرابي بين غنمه، كما يفهمها الفيلسوف بين كتبه، ويفهمها العالم في مختبره، كما يفهمها الفلاح في حقله؛ ذلك أنها قضية بُعث بها أنبياء الله جميعًا إلى سائر طبقات الناس، لا إلى الأذكياء فقط، ولا إلى المتعلمين دون غيرهم، ولا إلى السادة، ولا إلى الأثرياء... إنها إلى الثقلين جميعًا.

وهذا جزء من اليسر الذي وصف النبي ﷺ به الدين، كما في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة ﵁: "**إن الدين يسر**"(١). فجزء من هذا اليُسْرِ اليُسْرُ في العقيدة،

---

(1) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

بحيث تستطيع أن تشرح لأي إنسان عقيدة التوحيد في عشر دقائق أو نحوها، فينطلق وقد فهمها ووعاها بكل سهولة.

لكن حين ترى -مثلاً- عقيدة النصارى الضالين، تجد أن فيها من التعقيد والغموض ما يجعل كبار الأذكياء والعباقرة يحارون فيها، فضلاً عن رعاع الناس ودهمائهم؛ ولذلك فهم يسلمون ما يقوله لهم القساوسة، ويعدون الدين أسرارًا لا يصح مناقشتها، ويعتقدون وعيونهم معصوبة.

وحين تنظر في المناهج الفلسفية تجد أن مذهبًا كالوجودية يعجز عن فهمه الكثيرون من المثقفين، فضلاً عن القناعة به!

وعقيدة التوحيد الإسلامية الواضحة السهلة "**لا إله إلا الله**" تقتضي توجّه الإنسان بقلبه وجوارحه وكل أعماله إلى الله تعالى، وخلع جميع الأوثان والأنداد والطواغيت التي يتألّه المشركون لها، ويعبدونها من دون الله، أو مع الله سبحانه.

* * *

الشرك الحضاري والشرك البدائي

والأوثان والأنداد والطواغيت يدخل فيها كل معبود من دون الله أو مع الله، أي كل من صرف له شيء مما لا يصرف إلا لله ﷻ، ومن الجهل أن يظن ظانّ أنها تشمل -فقط- الأشجار والأحجار والكواكب وأشباهها مما يُعبد من دون الله.

فلئن كانت عبادة الأحجار والأشجار والكواكب ونحوها تتناسب مع عقل الأعرابي البدائي الساذج في الجاهلية، حتى إن الواحد منهم كان -كما يذكر أبو رجاء العطاردي من المخضرمين- يبحث في الصحراء عن أربعة أحجار، فيجعل ثلاثة منها أثافي[1] لقِدْرِه، ويستقبل الرابع منها ليصلي إليه، وإذا لم يجد حجرًا فإنه يحثو حثوة من التراب، ثم يحلب عليها الشاة ويعبدها.

أقول: لئن كان ذلك يتناسب مع عقل الأعرابي الساذج -ولا يزال يتناسب مع فهوم بعض الأمم البدائية إلى اليوم-

(1) الأثافي: أحجار ثلاثة توضع عليها القدر. المعجم الوسيط (٦/١).

فإن لأزمنة الحضارة المادية والرقي المدني ألوانًا كثيرة من الشرك تتناسب مع عقول أهلها: من عبادة الشهوات، وعبادة العقل، وعبادة المادة، والتقديس الفرعوني للأشخاص والمناهج والدساتير الأرضية.

فمما لاشك فيه أن من الشرك طاعة البشر فيما لا يُطاع فيه إلا الله تعالى، بحيث يطاع شخص في التحليل والتحريم والتشريع من دون الله، والأمر والنهي من دون الله، وتُصرف له الخشية، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء، والمحبة... وغير ذلك من ألوان العبادة.

كما أن مما لا ريب فيه أن من الشرك اتباع القوانين والأنظمة المخالفة لشريعة الله، والتي تحكم الناس في أموالهم ودمائهم وأعراضهم وأجسادهم، وتفرض عليهم بقوة الإلزام، فلا يملكون حيالها دفعًا ولا رفعًا.

كما أن من ذلك صرف الولاء للكافرين والمنافقين، ومحبتهم والركون إليهم، إلى غير ذلك من ألوان الشرك الكثيرة.

ولقد قدّم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام عقيدة التوحيد –التي تقتضي إفراد الله بالعبادة والخلوص له من كل أنواع الشرك– قدّموها للناس واضحة سهلة يسيرة: ﴿ **ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ** ﴾ [الأعراف:٥٩]، فالواجب على الدعاة أن يقدموها كذلك كما قدمها الأنبياء، وليس من المصلحة أن نُشعر الناس أن مسألة التوحيد والعبودية لله دون شريك مسألةٌ صعبة، لا يستطيع فهمها ولا القيام بها إلا القليل من الناس؛ فإن ذلك مناقض لواقع هذه العقيدة الفطرية، ومعاكس لما توحي به سيرة الرسول ﷺ، الذي كان يأتيه الأعرابي الذي عاش حياته كلها في الشرك والوثنية، فيجلس عند النبي ﷺ وقتًا قصيراً، فيشرح له النبي ﷺ الإسلام والتوحيد، فينطلق هذا الأعرابي مسلمًا؛ بل مؤمنًا داعيًا إلى دين الله تعالى، يأتي إلى قومه فيصرخ فيهم: بئست اللات، بئست العُزّى، إنها أصنام لا تضر ولا تنفع [(١)].

بهذه السهولة، وبهذا العمق يفهم الإسلام، ويتحول إلى داعية إليه من لحظة اقتناعه به. فما الداعي بعد ذلك أن نُدخل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣). من حديث أنس بن مالك وانظر: الفتح (١٤٨/١)

الناس في متاهات ليس لهم بها حاجة، ولا تنفعهم في قليل ولا كثير؟! والدين بين أيديهم واضح لكل أحد، فالعامي والمتعلم يفهم آيات الله، وأحاديث رسوله ﷺ المتعلقة بالتوحيد بكل يسر وسماحة، وليس علينا إلا أن نوضح لهم معاني بعض النصوص التي قد تصعب عليهم.

ولا يجوز أن يكون ورثة الأنبياء كبعض المدرسين الذين يُشعرون الطلاب بأن المادة صعبة؛ ليأخذوا عندهم دروسًا خصوصية تُدِرُّ عليهم مردودًا ماديًا، ولا أن يكونوا كبعض أساتذة الجامعات أو أصحاب الرياسات، الذين يستكثرون على غيرهم أن يتحدث في قضية أو يشارك برأي، متذرّعين بأن المتحدث -غيرهم- لا يعي القضية، ولا يدرك أبعاد الموضوع، وكأن العقول لم تخلق لغيرهم.

إن قراءة المسلم لسورة واحدة من خمس آيات "**سورة الإخلاص**" تملأ قلبه بمحبة الله تعالى وتعظيمه، ومعرفته وتوحيده، وإثبات كل صفات الكمال له، وتنـــزيهه عن كل عيب ونقص... فأي مسلم لا يعرف هذه السورة؟ ولم لا ننطلق من هذا الشيء العظيم الذي يعرفه؛ لنشرح له

معناه، ونكشف له دلالاته، وندعه يأخذ من القرآن هذه العلوم الغنية دون أن نحول بينه وبين ذلك بمصطلحات محدثة، أو علوم مستوردة، أو قواعد نسميها: "منطقية"، تجعل أخذه للعقيدة كأخذ الطالب لمادة الرياضيات أو الجبر أو الهندسة؟!

* * *

عبوديات شتى.. وشركاء متشاكسون

ما أحوج المسلمين اليوم -فضلاً عن غير المسلمين- إلى من يدعوهم إلى توحيد العبادة! فإن كثيرًا من المنتمين إلى هذه الأمة قد أخلّوا بهذه القضية الكبرى إخلالاً عظيمًا، فصرفوا ألوانًا من العبادة إلى غير الله تعالى، فترى فيهم من يستغيث بالمخلوق ليكشف عنه الضر، أو ليجلب له النفع، أو لينجيه يوم القيامة، وترى فيهم من يطوف بقبور الأولياء، ويذبح لهم، ويسألهم قضاء الحوائج وتنفيس الكروب...، إلى غير ذلك من أنواع الشرك العجيبة المنتشرة في بلاد كثير من المسلمين.

وقد وضعت لهذه الشركيات رسوم وشارات وشعارات، وحددت لها مناسبات واحتفالات ، وعندما ترى احتفالات الموالد التي تقام عند الأضرحة فإنك راءٍ ما يُعدُّ خزياً على هذه الأمة أن تهادنه أو تسكت عنه .

فأنواع الشرك من دعاء وذبح واستغاثه، وأنواع البدع من رقص وغناء وتواجد، وأنواع الفساد الأخلاقي المنفرد عن

هذا وأهله، في صور مؤلمة تنمُّ عن إلحاح الحاجة إلى توعية كثير من المسلمين بأخطر قضايا دينهم: **"قضية توحيد العبادة"**.

ولقد رأيت بعيني في بلد آسيويّ أهله فقراء جياع، لا يستطيعون الحج إلى بيت الله الحرام مع أن أفئدتهم تهفوا إلى ذلك؛ رأيت فيه العجب العجاب: فقد ابتكر لهم رجل في السبعين من عمره دينًا جديداً، وعبادة جديدة! بحيث ذهب إلى جبل هناك يقال له **"جبل باوكرينق"**، وأقام فيه مكانًا للتعبُّد يُشبه الكعبة، وأمر الناس أن يحجّوا إليه في وقت عيد الأضحى، واختصر لهم مسافة آلاف الأميال إلى مكة التي لا يطيقونها، وتابعه على ذلك ما يزيد على ستين ألفًا من الناس، كان يخطب بهم خطبة في يوم عرفة، ويأتون بالهدايا والقرابين فيسرِّحونها في تلك الجبال، فلا يتعرض لها أحد منهم، ويُمارسون هناك ألوانًا من العبادة تُضاهي ما يفعله المسلمون حين يحجّون إلى بيت الله الحرام!! وقد نشرت أخباره في الصحف هناك عيانًا بيانًا ولا نكير!

وهذا لون من الشرك الصارخ في بلاد المسلمين، قد يصعب على كثير من المنتسبين إلى الإسلام إدراك أنه شرك

مناقض لتوحيد الألوهية الذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وإذا كان هذا الشرك على مستوى العامة والسُّذَج، فإننا نجد كثيرًا ممن قد يُعَدُّون مثقفين، ممن استهوتهم بعض المذاهب الفاسدة؛ فعطّلت مداركهم وعقولهم؛ نجدهم يتعلقون بالبشر، ويتألّهون لهم، حتى يقول أحدهم -وهو معاصر- يخاطب علي ابن أبي طالب رضي الله عنه:

أبا حسنٍ أنت عينُ الإله
وعنوانُ قدرته الساميةْ!

وأنت المحيط بعلم الغيوب
فهل عنكَ تعزُبُ من خافيةْ؟!

لك الأمر إن شئتَ تُنجي غدًا
وإن شئتَ تسفعُ بالناصيةْ!

فماذا بقي لله عز وجل بعد هذا كله؟ ﴿ **مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خلقكم أَطْوَارًا** ﴾ [نوح:١٣،١٤].

وآخرُ كتبَ قصيدة يخاطب فيها رجلاً يعظِّمه، قال فيها:

وأنت على كل شيء قديرْ
وأنت بكل البرايا عليمْ
وأنت الوحيد وأنت المليك

إلى غير ذلك من الكلمات التي يقولها أمثال هؤلاء، والتي بلغت من الكفر والشرك مبلغًا قد لا يكون بلغه أبو جهل وأبو لهب -والعياذ بالله-.

وصلني تقرير عن رجل شهير يفيد أنه يرى أن الأقطاب هم "المتصرفون" في كل شئون الكون.. ويذكر تفاصيل ما جرى في بلد إسلامي من الحرب واستيلاء الشيوعية عليه، وتفاصيل ما حصل من النجاة لبلد آخر، ويعزو ذلك إلى "المتصرف" الذي أظنه كان مشغولاً ببعض أمره!

هذا التردي في مهاوي الشرك والضلال يتطلب من المصلحين اليوم أن يجعلوا قضية توحيد الألوهية محور جهودهم الذي يدورون حوله، وأن ينفضوا غبار الغفلة عن هذا الركن العظيم، ويَدَعوا التشاغل عنه.

حقًا إن قضية الربوبية وتوحيد الله تعالى بأفعاله قضية أساس مهمة، ولكن البشر قد جُبلوا على الإيمان بالله،

والاعتراف بوجوده فطرة، ولذلك سرعان ما تهاوت معاقل الشيوعية الملحدة؛ لأنها كانت تقوم على أساس إنكار وجود الله تعالى، والذين كانوا يدندنون بالإلحاد في بلاد المسلمين وغيرها، كان كثير منهم ينطلقون من حماس سياسي أكثر مما ينطلقون من اقتناع عقليّ.

وكأن الإلحاد وإنكار وجود الله تعالى قد تراجع كثيرًا، ولم يَعُد خطرًا يهدد الإيمان، وإن كان الناس يحتاجون دائمًا إلى التذكير، وإزالة الشكوك والشبهات من نفوسهم.

وحقًّا إن توحيد الأسماء والصفات قضية أساس مهمة، تحتاج -ولاشك- إلى بيان وتوضيح؛ لكثرة الانحراف فيها، وكثرة الفرق المخالفة لأهل السنة في ذلك، وحقًا إن الرسل عليهم السلام جاءوا بتعريف الناس بربهم الحق بأسمائه وصفاته وأفعاله جل وعلا، حتى قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: "**إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مئة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة**"[1].

حقًّا إن هذين التوحيدين بهذه المنـــزلة من الدين، ولكن

(1) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يبقى توحيد الألوهية وإفراد الله عز وجل بالعبادة بكل ألوانها هو المركز الذي تدور حوله المعركة الكبرى، المعركة بين التوحيد والشرك، المعركة بين عبادة الله وحده وعبادة الطاغوت.

* * *

الصراع على ماذا؟

وكيف لا يكون الأمر كذلك ونحن نجد أن المعركة بين الرسل وخصومهم كانت حول هذا الركن الأعظم، ولم تكن المعركة خلافًا حول فرعية فقهية، أو جزئية من الجزئيات، أو مسألة من المسائل الاجتهادية؛ بل إننا نجد أن شرائع الرسل أنفسهم قد تعددت بحسب الزمان والمكان والأمة؛ لأن الشرائع إنما جاءت لتنظيم حياة الناس بما يضمن لهم المصلحة العاجلة والآجلة، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام "**إخوة لعلاّت**[١]، **أمهاتهم شتى** -أي: شرائعهم-، **ودينهم واحد** -وهو التوحيد-"[٢].

أفلا يفطن لذلك أقوام ممن يعنون بأمر الإسلام -أو هكذا يظن بهم- فيجددون حقيقة دعوة الأنبياء وأتباعهم، فيخوضون المعركة التي خاضوا، ولا يتشاغلون ببنيات الطريق عن الهم الأكبر؟ فهذا هو دأب المصلحين والمجددين على مدار التاريخ.

(1) العلاّت: أولاد الرجل من نسوة شتى. مختار الصحاح (ص١٨٩).

(2) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فالمعركة التي خاضها ابن تيمية -مثلاً- مع خصومه كانت بالدرجة الأولى معركة التوحيد، ومحاربة كل ألوان الشرك في العبادة أو في الطاعة، أو في الاتباع أو غيره.

والمعركة التي أثارها الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب كانت مع صور الشرك التي كانت تضرب بجذورها في هذه البلاد، فدعا الناس إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، والإقلاع عن ألوان الوثنية والشرك. ولم تكن المعركة التي أثارها حول قضية جـــانبية، أو في خـــلاف فقهي؛ ولهذا لا تجد للشيخ محمد ابن عبد الوهاب ولا لأتباعه وتلاميذه فقهًا مستقلاً، ففقههم هو فقه الأئمة من قبلهم، يختارون منه ما يرون أنه أقرب للدليل، وليسوا منشئين مذهبًا خامسًا -كما قد يقال عنهم-، وإن كثيرًا من الناس لا يزالون يقتنون كتب الإمام محمد ابن عبد الوهاب، ويطلعون عليها ويسمعونها؛ بل ويحفظونها ويزينون بها رفوف مكتباتهم، ولكنهم يغفلون -أو يتغافلون- عن حقيقة المعركة التي أثارها.

كثير من المنتسبين إلى العلم والدعوة اليوم يثيرون معارك جانبية وطواحين في الهواء مع من حولهم، وتتوالى الكتب

والرسائل والأشرطة المسموعة حول قضايا فرعية سلبت الاهتمام كله؛ بل ربما أدى الأمر أحيانًا إلى المناظرات، وإذا لم تُجْدِ المناظرة كان اللجوء أحيانًا إلى نوع من المباهلة. كل ذلك حول قضايا هي في الغالب فرعية تحتمل الخلاف، وليس فيها هدى وضلال، وإنما قد يكون فيها خطأ وصواب، والخطأ قد يكون هنا وقد يكون هناك، وقد يكون جزء من الصواب هنا وجزء منه هناك، وتبقى القضية في هذه الحدود!!

إننا في ظل ذلك نتساءل عن نصيب قضية توحيد الألوهية من هذه الجهود الكبيرة. نتساءل: كم كتاباً نملكه في معالجة هذه القضية؟! كم رسالةً؟! كم مقالةً؟! كم مجلساً؟! كم شريطاً في ذلك؟!

* * *

إسلام الشعارات لا يكفي!

لا ريب أن قضية توحيد الألوهية -كما أسلفت- قضية واضحة سهلة، ولكن قضية التوحيد، وكلمة **"لا إله إلا الله"** ليست مجرد شعار يرفع؛ وإنما هي حقيقة تعاش. والذين يهاجمون دعاة الإسلام اليوم؛ بحجة أنهم يرفعون الشعارات ويراهنون عليها، يعلمون جيدًا أن الذين يرفعون الشعارات هم أولئك الحكام الذين وعدوا شعوبهم بجنات الدنيا، وبالوحدة والنصر على الأعداء، ثم تبخرت هذه الوعود المعسولة و:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيـــدها إلا الأباطيل(1)

وحينئذ عرفت الشعوب من هم الذين يحملون الحقيقة، ويتبنون قضايا الأمة، ويدعون إلى الحق؛ فانجفلت إليهم، وأقبلت عليهم، في جميع بلاد الإسلام بلا استثناء، وحينئذ

(1) البيت من قصيدة كعب بن زهير "بانت سعاد"، انظر الأغاني (١٧/٩٤).
وقوله "مواعيد عرقوب" مثل يُضرب في خلف الوعد، وله قصة انظرها في مجمع الأمثال (٢/٣١١).

سقطت الشعارات الوهمية الجوفاء:

أين الشعارات؟ أين المائلون بها
الدنيا؟ لَكَمْ زَوَّرُوا التاريخ والكتبا
فلا خيــولُ بني حمدانَ راقصة
زَهْــوًا ولا المتــنبي مالئٌ حَلَبَــا
وقبرُ خالد في حمــص تلامسه
فيرجف القبر من زوَّاره غَضَبَــا
يا رُبَّ حيٍّ رخامُ القبرِ مسكنهُ
ورُبَّ مَيْتٍ على أقدامه انتصــبا
يا بنَ الوليد ألا سيفٌ تؤَجِّره
فإن أسيافهم قد أصبحت خشبا

وكما أن كلمة التوحيد ليست مجرد شعار يرفع، فهي كذلك ليست مجرد كلمة تقال باللسان فحسب، ولو كانت كذلك لتسارع إليها المشركون، لما طلب منهم كلمةً تدين

لهم بها العرب، ويملكون بها العجم(١). ولَمَا دخلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك المواجهة المريرة، والمعارك المتوالية، ولكنهم كانوا — وهم العرب الأقحاح — يعلمون ما يترتب على هذه الكلمة من تغيير كبير في الحياة.

إن مجرد نطق كلمة التوحيد **"لا إله إلا الله"** أمر سهل ميسور، يستطيعه العربي والعجمي، والكبير والصغير؛ بل لا يعجز عنه الألثغ، ولكن الأمر أبعد من ذلك كله.

إن كلمة **"لا إله إلا الله"** لها مقتضيات:

- فهي تقتضي صياغة الحياة كلها وفق شريعة الله ﷻ.
- وتقتضي ألا يتوجه المرء بصلاته أو زكاته أو نسكه إلى غير الله تعالى: ﴿ **قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ المسلمين** ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣]. فمن قال: **"لا إله إلا الله"**،

(1) أخرجه أحمد (١٦٠٢٣)، والترمذي (٣٢٣٢)، وابن حبان (٦٦٨٦)، والحاكم (٤٣٢/٢)، من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

ثم دعا نبيًا أو وليًا أو غيرهما، أو استغاث بهم، أو نحو ذلك؛ فقد نقض هذه الكلمة العظيمة.

- وتقتضي صياغة النظام الاقتصادي حسب ما يريد الله تعالى، بعيدًا عن أنظمة الشرق الشيوعية، وأنظمة الغرب الربوية الرأسمالية. وإن كانت أنظمة الشرق الشيوعية قد انهارت، فإن أنظمة الغرب تضرب بجرانها في بلاد العالم كلها، ولا يزال الواقع يوحي بأن هناك مزيدًا من الانغماس في النظام الغربي الربوي، المخالف لشريعة الله.

- وتقتضي ألا تؤخذ الأحكام والتشريعات والنظم من غير الكتاب والسنة؛ إذ إن في الحياة منهجين ودينين: دين الله، ودين الملِك. فدين الله تعالى هو عبادة الله ﷻ وحده، بكل ما تقتضيه كلمة التوحيد من أمور؛ ولهذا قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ** ﴾ [يوسف:٧٦]. فدين الله تعالى واضح، وهو غير دين الملِك، وغير دين الطاغوت.

- وتقتضي التسليم بأن الذي يملك أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، وهذا خطأ وهذا صواب، وهذا حق وهذا

باطل، وهذا صالح وهذا فاسد ــ هو الله تعالى وحده.

ولذلك فإن الحكم بما أنزل الله جزء من كلمة **"لا إله إلا الله"**، والحكم بغير شريعة الله شرك، ونقض لهذه الكلمة، ومنازعة لله في أمره، ومحادة له في حكمه، ورضًى بأن يكون الواضع لهذه الأحكام إلهًا من دون الله تتلقى منه الأحكام والتشريعات، والله تعالى يقول: ﴿ **مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا** ﴾ [الكهف:٢٦]، وفي قراءة سبعية: ﴿ **وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا** ﴾ أي: لا تشرك مع الله ﷻ أحدًا في الحكم، ويقول سبحانه: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ** ﴾ [الشورى:٢١]. فلا يملك أحد –كائنًا من كان– أن يشرع من دون الله، حتى علماء الشرع ، فإن العالم حين يقول: هذا حلال وهذا حرام، لا يأتي بشيء من قِبَل نفسه، وإنما هو مُعَبِّر عن حكم الله ورسوله، وترجمان عن الكتاب والسنة. وإذا كان هذا شأن العالم في هذه القضية فمن هو دون العالم أولى: ﴿ **وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ** ﴾ [الأنبياء:٢٩]. كما قال الله تعالى عن الملائكة.

إن الذين يعُدُّون الدعوة إلى تحكيم شريعة الله نوعًا من (تسييس الدين)-كما يعبِّرون- بمعنى جعل الدين مطية لأطماع سياسية وأمجاد شخصية، ويكيلون في صحفهم وكتاباتهم الاتهامات للدعاة؛ إن هؤلاء المجلبين إنما يرددون ما قاله أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام في حق رسلهم من قبل.

ونحن يجب أن نخاطب الجماهير التي تثق بكلمتنا -وهي بحمد الله كثيرة- فنقول: إننا -والله- لا نسعى إلى مصالح شخصية، وكذلك سائر دعاة الإسلام المخلصين -وهم بحمد الله كثير في أنحاء الأرض- لا يطمحون إلى منافع شخصية أو أغراض ذاتية، ولو أرادوا ذلك لعرفوا طريقه، ولكنهم إنما يريدون الإصلاح، فسلكوا طريق الأنبياء الصعب، الذي فيه السخرية منهم، وفيه التعتيم الإعلامي، وفيه تحطيم المواهب، وفيه مناصبة العداء، وصب التهم، وألوان شتى من الإيذاء الحسي والمعنوي: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أتاهم نَصْرُنَا** ﴾ [الأنعام:٣٤] ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ﴾ [آل عمران:١٤٦]،

وفي قراءة: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾، وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** ﴾ [البقرة:٦١].

هذا هو سبيل النبيين المحفوف بالمكاره: قُتل منهم من قُتل، وجُرح منهم من جرح، وحوصروا، ومنعوا من الخروج من بلادهم، وأوذوا؛ فصبروا ولم يركنوا إلى زخرف من الدنيا رخيص.

لقد أصبح معروفًا من هو الذي يركض وراء المصالح والمنافع ويبحث عنها، حتى ولو كان على حساب الأمة، وتدمير مصالحها.

أين الأحزاب العلمانية التي كانت تملأ الجو صراخًا بالوطنية والقومية، فإذا هي تبيع البلاد وخيراتها للكافرين؟

أين أدعياء التحرر الذين أصبحوا يتهالكون على النظام الدولي الجديد -كما زعموا- الذي هو عباءة للتبعية الغربية البغيضة؟

أين أدعياء الديمقراطية الذين يصادرون بقوة السلاح اختيار الملايين لمجرد أنه لا ينسجم مع رغباتهم؟!

والوحـــش وحـــش دينـــه فَمُـــهُ
والغـــدر لا يمحـــوه من يمحـــوا
اللحـــم في أنـــيـــابـــــه وعـــلى
أنيـــابهم مِـــزَقٌ[١] بهـــا قيـــح!

إن الدعاة والمصلحين أعرضوا عن بريق الدنيا، وآثروا ما عند الله، ورضوا -إذا لزم الأمر- بترك الديار، والبعد عن الأولاد، ومقاساة ألوان الغربة والبعاد؛ بحثًا عما يرضي الله ﷻ؛ بل إن سيدهم وإمامهم وخاتم النبيين محمدًا ﷺ جُرح في غزوة أحد، وكُسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتيه[٢]، وشُج رأسه، وكان ﷺ يقول: **"كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟"**[٣].

لقد كان أعظم هدف الأنبياء الله هو النصر أو الشهادة، كما قال رسول الله ﷺ متطلعًا إلى الشهادة في سبيل الله:

(1) المِزَق: القِطَع من الثوب الممزوق. مختار الصحاح (ص٢٦٠).
(2) الوَجْنة : ما ارتفع من الخدين. مختار الصحاح (٢٩٦).
(3) أخرجـــه البخـــاري معلقًا (في المغازي) باب: (ليس لك من الأمر شيء)، ومســـلم (١٧٩١) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

"وددت أني أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل"[١]. وقال جابر بن عبد الله ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر أصحاب أحد: **"أما والله لوددت أني غودرت مع أصحاب نحص الجبل"**[٢]، يعني: أصل الجبل وسفحه، أي: ليتني استشهدت معهم وتركت مع قتلى أُحد.

فلم يكن أنبياء الله يطمعون في دنيا، ولم يكونوا يطمحون إلى منصب؛ بل كانوا أزهد الناس في المناصب.

إن الصادقين من دعاة الإسلام من أزهد الناس فيما يتنافس فيه أهل الدنيا، وفيما تشرئبّ إليه أعناق الذين يتهمون الدعاة بما يلفِّقون، ولقد قال أحد الدعاة المهتدين: لأن أكون موزع بريد في دولة تحكم بالإسلام خير وأحب إليَّ من أن أكون حاكمًا أو وزيرًا في أرض لا تحكم بشريعة الله ﷻ.

وأمام هذا النموذج وأمثاله، تتحطم كل الدعاوى الزائفة التي ترمي دعاة الإسلام -المشفقين على الأمة- بالتطلع

(1) أخرجه البخاري (٧٢٢٧)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(2) أخرجه أحمد (١٥٠٢٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وإسناده حسن.

إلى السدد السياسية.

ولكن الأمر الذي لا ريبة فيه، والذي ندين الله تعالى به: هو أن السياسة جزء من الدين، وأن اعتقاد انفصال السياسة عن الدين كفر وردة عن الملة، وأن من مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام التي بعثوا من أجلها إصلاح الفساد السياسي، والله تعالى يقول في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ [المائدة:٤٤]، ويقول: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾ [المائدة:٤٧]، ويقول: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [المائدة:٤٥]، ويقول سبحانه: ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا** ﴾ [الإسراء:١٢]، ويقول: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل:٨٩]، ويقول تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء:٩]، أي: في كل شؤون الحياة يهدي للتي هي أقوم: في الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، والإعلام، والإدارة، وفي كل الأمور.

وفي الفترة المكية نزلت على النبي ﷺ الآيات القرآنية التي تنعي على المشركين تحكيم شريعة غير شريعة الله تعالى، وتعد هذا أحد ألوان الشرك التي وقعوا فيها، وجاء الرسول ﷺ لإخراجهم منها، وهذا جزء من معنى: **"لا إله إلا الله"**، قال الله تعالى: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ** ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وكل أمر من الأمور لله ورسوله فيه حكم، وللطاغوت فيه رأي -كما تقدم- هذا دين الله وهذا دين الطاغوت، فلابد من مقارعة رأي الطاغوت، الذي يُعْرَض في كثير من الأحيان بتدريج إعلامي مذهل، وبأساليب متفننة، وطرائق خبيثة ماكرة، استخدمت أرقى ما توصل إليه الفكر البشري من التقينة والمعرفة بطبائع النفوس، ومداخلها، ومسارها، ومنحنياتها، فلابد من مواجهة هذا الترويج الإعلامي ببيان حكم الشرع الواضح، الذي ترتاح إليه النفوس، وتبرأ به الذمم.

وهذا هو الطريق الصعب الشاق الطويل الذي اختاره الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويجب أن يختاره أتباعهم مهما كلفهم ذلك من جهد ومشقة وعناء، وأن يعلموا أنه لو كان

الأنبياء أو المصلحون إلى يوم القيامة يحاربون من ألوان الشرك المناقض لكلمة **"لا إله إلا الله"** ما يتعلق بالأوضاع الشعبية فقط؛ لما تعرَّض لهم أحد، ولما وقف في وجوههم إلا القليل، ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا يدعون إلى جزء واحد من الدين؛ بل كانوا -كما تبيَّن- يسعون للإصلاح في كل شئون الحياة، وكما قال النبي ﷺ: **"إن هذا الدين لا يقوم به إلا من حاطه من جميع جوانبه"**(١).

فلا ريب إذن أن من مقتضيات كلمة التوحيد: **"لا إله إلا الله"** التسليم لله تعالى وحده بحق التشريع والحكم.

* * *

(1) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، والديلمي في مسند الفردوس (٨٩٧)، وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٥٦/٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تحرير الولاء لله

ومن مقتضيات كلمة التوحيد-أيضًا- تحرير الإنسان من الولاء لغير الله، تحريره من الولاء للطاغوت، الولاء للمشركين، الولاء لليهود، الولاء للنصارى، الولاء للعلمانيين، الولاء للمنافقين، أو لغيرهم من الملل والنحل، والمذاهب المجافية لسبيل المرسلين.

فيجرِّد الإنسان ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين، ويبرأ ممن سواهم، بحيث يكون قلبه متحركًا بهذا الشعور، فلا يملك إلا أن يميل إلى أهل الحق والإيمان، ويفرح بانتصارهم، ويدعو لهم، ويحزن لمصابهم في أي معركة تقع بين الحق والباطل، سواء كانت معركة عسكرية، أو سياسية، أو إعلامية، أو غيرها، وفي أي مكان وقعت: في المغرب، أو في المشرق، أو في بلاد العرب، أو العجم، فوق كل أرض، وتحت كل سماء.

ولذلك كان من علامة المؤمن: الفرح لانتصار دين النبي محمد ﷺ، والحزن لانخفاض دينه ﷺ، ومن علامات المنافق: الفرح لانخفاض دين النبي ﷺ، والحزن لارتفاع دينه ﷺ.

ومن هنا تجد أن المنافق لا يملك نفسه إذا رأى المكروه يصيب المؤمنين، فإنه يفرح ويسر، ويجاهر بما في قلبه من الفرح بنـــزول البلاء بالمؤمنين؛ لأن ولاءه لغير المؤمنين، وقلبه مملوء بالحقد والنفاق، ويعبِّر عن هذا الشعور بأسلوبه الخاص، فإن كان سياسيًا عبَّر بتصريح ملفوف، وإن كان صحفيًا عبر بصياغة إخبارية مغرضة، وإذا خلوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ .

فيجب على المسلم أن يحب المسلم الموحِّد، ويرجو له الانتصار، ويدعو له، ويتعاطف معه، ويدافع عنه، وأن يعلم أن هذه الأمور دين يتعبد الله به، وحق لأخيه المسلم عليه، بغض النظر عن نتائج المعركة هل ينتصر فيها أخوه المسلم أو لا؟ فإن التذبذب في الولاء هو طريقة المنافقين، فهم إذا رأوا الغلبة لهؤلاء أيَّدوهم وآزروهم، وإن رأوها لأولئك أيَّدوهم وآزروهم، كما قال الله تعالى:﴿ **الذين يَتَربَّصونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ [النساء:١٤١]، وهكذا يتلون المنافق ويخادع،

ويقول – أحيانًا – كلامًا يرضي الطرفين؛ ليلحق بالطرف المنتصر بعد انتصاره، وهذا يذكرنا بما يروى من أن رجلاً قام خطيبًا في خليط من السنة والشيعة، فسُئل: أيهما أفضل أبو بكر أم علي؟ فقال كلمة غامضة ترضي الطرفين، قال: الأفضل منهما من كانت بنته تحته، فخرج أهل السنة فرحين، يقولون: إنه يعني أبا بكر؛ لأن بنت أبي بكر –عائشة–هي زوج النبي ﷺ، وخرج الشيعة كذلك مسرورين، يقولون: فضَّل عليًا؛ لأن بنت الرسول كانت تحت علي ؓ وهي فاطمة رضي الله عنها.

إنك حين تنظر في أي قضية من قضايا الإسلام –وبخاصة في أزمنة الضعف والاضطهاد للمسلمين– فإنك تجد أن رؤوس النفاق يتبينون فيها، ويُكَشِّرون عن أنيابهم، فيظاهروا المشركين والعلمانيين ويؤيدوهم، ويُسَخِّروا كل ما أعطاهم الله تعالى في نصرتهم، على العكس تمامًا مما كان عليه الأنبياء، كما يقول موسى عليه السلام: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ** ﴾ [القصص:١٧]. ولسان حال كثير ممن يُنسبون إلى الإسلام، وهم لم يحققوا التوحيد حقيقة،

و لم تقم في نفوسهم معاني البراء من المشركين والعلمانيين؛ بل قام في نفوسهم -والعياذ بالله- النفاق الأكبر الاعتقادي المخرج من الملة، الذي جعلهم يتعاطفون مع الكافرين في كل مكان، ينصرونهم على المؤمنين، ويفرحون بارتفاع كلمتهم _ لسان حال هؤلاء يقول: ربِّ بما أنعمت عليّ فسوف أكون ظهيرًا للمشركين، وأستخدم ما آتيتني في تأييدهم ونصرتهم على المؤمنين!!

إن قضية الولاء والبراء قضية أساس، حتى لقد قال بعض أهل العلم: إنه لم يرد في القرآن من الآيات -بعد ما ورد في قضية توحيد الألوهية- مثل ما ورد في قضية الولاء والبراء.

* * *

﴿ **وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملئكة وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا** ﴾

ومن قبل لم يكن أحد من رسل الله الكرام عليهم الصلاة والسلام يدعو إلى نفسه، قال الله ﷻ: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملئكة وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران:٧٩،٨٠].

لم يكن نبي من الأنبياء قط يدعو الناس إلى أن يعبدوه، فيجعلوه ربًّا لهم من دون الله، ولا يأمرهم أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا من دون الله؛ بل يأمرهم بطاعة الله تعالى وعبادته، ونبذ ما سواه، ويُربي قلوبهم على أن النفع والضر، والعطاء والمنع؛ لا يملكه إلا الله، وأن الآجال بيد الله، وأن الإنسان لا يملك لأخيه الإنسان نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأن كلمة الحق لا تباعد من رزق، ولا تقرِّب من أجل، وأن الله وحده هو الخافض الرافع، القابض الباسط، الضارّ النافع، الذي له مقاليد الأمور كلها؛ فتمتلئ

قلوبهم حبّاً لله، ورغبة فيما عنده، وشوقًا إليه، ورجاءً فيه، وخوفًا منه، وحينئذ يخرج من القلب تعظيم المخلوقين والخوف منهم وحبّهم، ويقع في قلبه جلال الله وعظمته وهيبته، فيتكلم بالحق ولا يبالي، ولا يخاف في الله لومة لائم، ويصدع بما يؤمر ويعرض عن المشركين، وينصر الإسلام والمسلمين في كل مكان، ويدعو إلى الله تعالى، ويصبر على ما أصابه، ولا يقيم لهذه الدنيا وزنًا، وإن استمتع منها بشيء مما أحل الله فهي في ذلك كالمطية له، يستخدمها ولا يخدمها، يركبها إلى ما يكون فيه مرضاة الله، والنجاة في الدار الآخرة.

ودعاة الإسلام يجب أن يسيروا على الجادة التي سار عليها الأنبياء من قبلهم، بحيث لا يدعون الناس إلى مذهب من المذاهب الفقهية دون سواه، ولا يدعون الناس إلى جماعة من الجماعات العاملة للإسلام، ولا يفرضون على الناس اجتهادًا في مسألة من المسائل القابلة للأخذ والرد، ولا يدعون إلى شخص، مهما كانت منـــزلته وجلالته وقدره، اللهم إلا شخص الرسول ﷺ، فهو إمام الأئمة، وسيد المتبوعين، ونحن ندعو الناس إلى الاقتداء به ومتابعته ظاهرًا وباطنًا.

فإن رآنا الناس –معاشر دعاة الإسلام– دَعَوْنا في يوم من الأيام إلى العبودية لغير الله تعالى في مجال من مجالات الحياة، أو دعونا إلى اتباع غير رسول الله ﷺ في أمر من الأمور، فليردّوا علينا جمــيعًا دعوتنا، وليضـــربوا بها وجـــوهنا، وليَعُدُّوا هذا نكولاً منا عما نَذَرْنا أنفسنا له، وتعاطيًا للتلون في دين الله ﷻ.

إن الدعوة هي إلى كتاب ربِّنا، وسنة نبينا ﷺ، وهما توحيدان: توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة، وتوحيد النبي ﷺ بالاتباع له فيما جاء به عن ربه.

❊ ❊ ❊

ميدان المعركة وآلتها

وإذا كان موضوع المعركة بين الحق والباطل هو توحيد الألوهية، فإن ميدان هذه المعركة -كما تبيَّن- هو الحياة كلها، بمجملها وتفصيلها، الحياة التي يتنازعها عِبَاد الله وعِبَاد الطاغوت.

ولا شك أن عِبَاد الطاغوت يعملون على تجهيل الشعوب دائمًا بحقيقة التوحيد، وحصر التوحيد في جوانب معينة محدودة من جوانب الحياة؛ وذلك ليسهل عليهم خداع الناس وتضليلهم بالخطط الرهيبة، بحيث إذا ادعى الطاغوت -مجرد دعوى- أنه يحكم بشرع الله، وأنه يدعو إلى الدين، ويسعى إلى الإصلاح، صدَّقه الناس؛ لأنهم لا يعرفون حقيقة التوحيد، ولا يدركون إحاطته بكل جوانب الحياة، ولو كانوا على علم بذلك لقالوا لمثل هذا الطاغوت: ﴿ **قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ** ﴾ [البقرة:١١١].

فكيف تنقض بفعلك في كل لحظة ما تقوله بلسانك؟!

كما أن من أهداف عباد الطاغوت من تجهيل الناس حقيقة التوحيد: أن يتمكنوا من تشكيك الأمة في الدعاة إلى

الله تعالى، وغرس الريبة في نفوس الناس تجاه مقاصد أولئك الدعاة من دعوتهم.

أما آلة الحرب بين الشرك والتوحيد، بين عباد الطاغوت وعباد الله، فهي كل وسيلة يمكن استخدامها، فإن عباد الطاغوت لا يتورّعون عن استعمال أي وسيلة تحقق غايتهم، وإذا كانت غايتهم فاسدة – وهي تعبيد الناس لغير الله – فلا غَرْو أن يستخدموا في تحقيقها كل الوسائل الفاسدة، بما في ذلك الكذب والتضليل، والخداع، والتلصص، والتجسس، وكل وسيلة تقع في أيديهم؛ بل يتعدى الأمر ذلك عندهم إلى استخدام البطش والتنكيل، والتشريد، والتقتيل، وسائر ألوان الاستبداد.

وسترى أن الدول التي تنادي -كما تزعم- بحفظ حقوق الإنسان، لا تقيم وزنًا للإنسان المسلم بأي حال من الأحوال، ولا تعير دمه أي اهتمام؛ بل تستخدم ضده أسلحة الدمار الشامل.. وما أسلحة الدمار الشامل؟! أليس الإفقار من أسلحة الدمار الشامل التي سلطوها على المسلم؛ حتى ينشغل بطلب الرزق عما سواه، حتى أصبحت ترى جماعات من

المسلمين يموتون جوعًا في بلاد كثيرة من بلاد الإسلام.

أليس إغراق المسلمين في بؤرة المرض، والبؤس، والفناء من أسلحة الدمار الشامل التي وجّهها أعداء الإسلام إلى المسلمين؛ لتصفيتهم جسديًا، والقضاء عليهم، وتقليل سوادهم؟

أليس تخريب اقتصاد المسلمين، وإغراقه في المديونيات التي لا يخرج منها إلا بجدولة جديدة، تضاعف العبء وتزيد من تسلط الغريم الملازم، هو من أسلحة الدمار الشامل؟!

كل هذه الأسلحة الفتاكة وغيرها قد استخدمها المنادون بحفظ حقوق الإنسان، فأين حقوق الإنسان؟! أم أن الإنسان الوحيد الذي يجب أن ترى حقوقه وتحفظ كرامته، هو الإنسان الأبيض الغربيّ فقط؟!

ألا إن المعركة بين التوحيد والشرك، بين الحق والباطل، بين الدعاة إلى الله والطواغيت، هي المعركة الكبرى التي لا تزال تخاض في كل مجالات الحياة .

* * *

الفهرس

* * *